من
التراث الكنسي

معرفة الله

كأسمى هدف وأعظم فرح للحياة[١]

(١)

❖✚❖

(١) هل الله مُدْرَكٌ مِن منظورٍ مسيحي أرثوذكسي؟

يكتب الرَّسول يوحنا ويقول: **«وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ»** (يو ١٧: ٣).

البَرَكة والنِّعمة العُليا للنَّفس البشريَّة هي أنَّها تستطيع أنْ تعرف الله، ولكن المأساة الصَّارخة والعُظمى في أنَّه يوجد كثيرٌ مِن النَّاس لا يريدون أنْ يَعرفوا الله. مَعرفة الله ليست هي مجرَّد نوع آخَر مِن المعرفة، لأنَّها تُشكِّل موضوعًا أخطر: الحياة أو الموت، السَّماء أو الجحيم. أنْ تعرف الله، فهذا أسمى أشكال المعرفة.

يقول فرانسيس باكون Francis Bacon:

"المعرفة قوَّة".

مَعرفة الله هي شيءٌ أكثر مِن قوَّة، إنَّها حياةٌ أبديَّة. مَعرفة الله هي: **«مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ»** (غل ٥: ٢٢، ٢٣).

يقول القدِّيس سلوان St. Silouan:

"أثمن ما في الحياة هو أنْ تعرف الله، حتى ولو كان بغير وضوح، معرفة خافتة".

التَّعليم المسيحي The Catechism يُخبرنا أنَّنا لم نولَد لشيء آخَر غير هذا، فنحن لا

---

(١) عن كتاب بعنوان:

Anthony M. *Coniaris, Knowing God Life's Highest Purpose & Joy.*

نحيا لهدفٍ آخَر أكثر مِن أنْ نَعرف، وأنْ نُحِبَّ، وأنْ نمجِّد، وأنْ نخدم الله على الأرض، لنفرح ونتمتَّع به في السَّماء، وإلى الأبد.

يقول القدِّيس أنطونيوس St. Anthony:

[أكثر الخسائر خطورة، وأعظم مصيبة ومأساة للإنسان، هي ألَّا يعرف الله].

(٢) أسمى المعارف:

يُؤكِّد بعض النَّاس على أنَّ الرياضيَّات هي أعلى أشكال المعرفة، ولكن ليس هذا؛ كما أنَّه أيضًا ليس اللاهوت، لأنَّ اللاهوت يتكلَّم عن الله؛ ولكن أعظم أشكال المعرفة هو لا أنْ تعرف عن الله، بل أنْ تعرف الله شخصيًّا. مِثل هذه المعرفة هي علاقة حميميَّة، شخصيَّة، ومبنيَّة على المحبَّة كما سوف نرى. إنْ لم نكن نعرف الله شخصيًّا، فنحن لا نحيا بالحقيقة، وليست لنا حياة واقعيَّة. أنْ تعرف الله معناه أنْ يكون لك سلام، أنْ تُحَقِّق الهدف. أنْ تعرف الله هو أنْ تُنجز وتُحرز الغرض الذي لأجله خُلِقتَ. الحياة الفعليَّة تتضمَّن معرفة الله الحقيقيَّة.

لقد عرَّف المُخلِّص الحياة الأبديَّة بقوله: **«أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ»** (يو ١٧: ٣)، وهو نَفْس ما قاله سليمان الحكيم: **«أن يعرفوا قوَّتك، فهذا هو أصل عدم الموت (الحياة الدَّائمة)»** (حكمة ١٥: ٣). ما هي المعرفة الأعظم، والأسمى، والأكثر صفاءً التي يمكن أنْ تكون أكثر مِن معرفة الله؟ ربَّما يكون لدينا كلُّ المعرفة في العالَم، ولكن لو لم نعرف الله في المسيح، فسوف لا نجد أبدًا الحياة ولا الفرح ولا السَّلام ولا الحُب.

أكَّد القدِّيس سلوان St. Silouan هذا عندما قال:

> **"لقد ربط النَّاس أرواحهم بأشياء هذه الأرض وفقدوا محبَّة الله، وبالتَّالي لا يوجد سلامٌ على الأرض. يوجد الكثير مِن الذين يقضون كلَّ حياتهم في محاولة المعرفة؛ وكمثال لذلك، كيف تشكَّلت الشَّمس؟ لكنَّهم ليسوا شغوفين بمعرفة الله. لكن لم يُكلِّمنا الرَّب عن الشمس، كلَّمنا عن الآب وملكوت السموات. قال إنَّ الأبرار في ملكوت الآب سوف يضيئون كالشَّمس. ويُعلِن الكتاب المقدَّس أنَّه في الفردوس سيكون الربُّ النُّورَ**

هناك، ونور الرب سيكون في أرواح وفي عقول وأجساد القدِّيسين"[٢].

(٣) ما هو الهدف الذي خُلقنا لأجله؟

ما هي الغاية التي خُلقنا لأجلها؟ خُلقنا لنعرف الله. ما هو الهدف الذي يجب علينا أنْ نضعه لأنفسنا في الحياة؟ أنْ نعرف الله. ما هو مَصدر الحياة الأبديَّة؟ أنْ نعرف الله في المسيح (يو ١٧: ٣). ما هو أفضل شيء في الحياة، الذي يجلب فرحًا أكثر، وسعادة أكثر، ورضًا أكثر مِن أيِّ شيءٍ آخَر؟ أنْ نعرف الله (إر ٩: ٢٣). وفي أيٍّ مِن كلِّ الحالات التي يرانا الله فيها، فإنَّه يمنحنا أكبر قَدر مِن السَّعادة؟ معرفته هو بنفسه: **«إِنِّي أُرِيدُ ... وَمَعْرِفَةَ اللهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحْرَقَاتٍ»** (هو ٦: ٦).

لم يُعبِّر إلاَّ القليل مِن النَّاس عن تفوُّق معرفة الله بأكثر قوَّة عن القدِّيس بولس الرَّسول عندما كتب: **«بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ ... لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ»** (في ٣: ٧-١٠).

كتب الكاتب الرُّوحي رالف إس كوشمان Ralph S.Cushman يقول:

"مِن كل الجوائز،
التي يمكن للأرض أنْ تعطيها،
فهذا أفضلها؛
أنْ أجدك يا رب.
وأنْ يكون لي وجودٌ حيٌّ قريبٌ منك،
وأنْ أجد فيك الرَّاحة".

(٤) ما الذي يقوله آباء الكنيسة عن معرفة الله؟

سيطرت على الكنيسة الأولى الرَّغبة أنْ تعرف الله، فقد أوضح آباء الكنيسة أنَّ كلَّ شيء قد خُلق لأجل معرفة الله، بالنِّسبة لهم فإنَّ تمام المعرفة يكون في إدراك سرِّ الحياة الدَّاخليَّة للثَّالوث (theologia) (theology)، وبحسب أوريجانوس Origen فإنَّ الهدف

(2) *Saint Silouan the Athonite* by Sophrony. SVS Prss. Crestwood, NY. 1991.

منه يكون: "**معرفة الآب، والابن، والرُّوح القدس**". يسوع هو الباب إلى الآب، ومفتاح الباب هو الرُّوح القدس.

كتب القدِّيس أثناسيوس St. Athanasius يقول:

[إنَّ الله خلق كلَّ الأشياء وقال إنَّها جيِّدة].

ومع ذلك، فمِن كلِّ الأشياء التي خلقها الله، فإنَّ البشريَّة كانت "جيِّدة جدًّا"بشكلٍ خاص، لأنَّها خُلقت على صورة الله الخاصَّة وأُعْطِيَت نعمة المعقوليَّة (العقل)، والذي مِن خلاله يستطيعون أنْ يعرفوا الله وأنْ ينظروه في العالم المُحيط بهم، وهكذا يأتون ليعرفوه ويحبوه. إنْ كنَّا نحن صورة الله، فالله يكون الأصل Archetype، ونحن انعكاس reflection لهذا الأصل. لهذا، وحتى نعرف مَن نحن، يجب علينا أولًا أنْ نأتي إلى معرفة الأصل Archetype، النَّموذج الأوَّل Prototype الذي على صورته قد خُلقنا. إنْ لم نعرف الله (الأصل Archetype) الذي على صورته خُلقنا، لن نستطيع أبدًا أنْ نعرف مَن نحن كظلال لهذا الأصل. يجب أنْ تجد الصُّورة حقيقتها، الذات الحقيقيَّة في الأصل الذي هو الكلمة المُتجسِّد، يسوع المسيح.

كتب أبراهام يوشيا هيشل Abraham Joshua Heschel يقول:

"العلامة المميِّزة symbol **للإنسان ليست معبدًا أو شجرة، ليست تمثالًا أو نجمًا (بل الله). العلامة المميِّزة لله هو الإنسان، كل إنسان. الله خَلَق الإنسان على صورته، على مثاله".**

وصف الأب نيكولاس كاباسيلاس Nicholas Cabasilas الأدوات التي وهبنا الله إيَّاها ليُمكننا مِن خلالها الوصول إلى معرفته فقال:

"نحن مُنحنا المنطقيَّة والمعقولانيَّة التي بها نعرف المسيح، الرَّغبة في أنْ نتقدَّم نحوه، والذَّاكرة التي مِن خلالها نحمله في داخلنا. فالمسيح هو موضع راحة البشريَّة ورغباتها واشتياقاتها، هو الطَّعام لأفكارنا؛ لذلك فأنْ نحبَّ أيَّ شيء بجانبه أو نُفكِّر في أيِّ شيء أقلَّ مِنه، فهذا انحرافٌ واضح عن الواجب وابتعادٌ عن المبادئ الأولى لطبيعتنا".

(يتبع)